بقلم فضيلة الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

وقفات مع القصة في كتاب الله

دروس من قصة آدم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن عداوة الشيطان لبني الإنسان قديمة ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما كونها قديمة : فمنذ خلق الله آدم وكرَّمه ، وأمر الملائكة - ومعهم إبليس بالسجود لآدم - منذ هذه اللحظة : دب الحسدُ في قلب إبليس ، وملأه غيظًا على آدم ، وَعَلِمَ الله ذلك من قبل أن يعلمه آدم ، ولذا حذر الله سبحانه آدم وزوجه من عدوِّه وعدوهما : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه :١١٧] .

رابعًا : إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ...

﴿ ... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٢] .

أما كونها مستمرَّة : فهذا أمر مركوز في الفطرة لا يُنكره إلا من انتكست فِطَرُهم انتكاسًا شديدًا ، وقد صَرَّح به اللعين نفسه ، وتوعد وتهدد ، بعد أنْ باتَ مطرودًا من رحمة الله :

﴿ قَالَ : أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

[الإسراء : ٦٢] .

انظر كيف بدت البغضاء في قوله ، وما يُخفي صدرُه أكبر ، وكيف

عبَّر بقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾، وفيها: إشارة إلى شدَّة كيْده، وكثرة انقياد بني آدم إلا قليلًا خلفه، كما تنقاد الدَّابة من خطامها خلف صاحبها. وقد عبَّر في موقع عن هذا فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، هكذا اشتعلت نار الحسد في قلب إبليس، وأعلن بوضوح تربُّصَه ليس بآدم وحده؛ بل بذريته جميعًا، وأنه سيدخُل عليهم من كل باب، ويأتيهم من كل طريق لصدِّهم عن دين الله، الحق المستقيم، ولخطر الشيطان، ودقة تلبيسه على الناس، وكثرة مداخله عليهم، حذَّرنا اللَّهُ منه، كما حذَّر أبانا من قبل: ﴿يَٰبَنِيٓ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فالعاقل من اعتبر بغيره، واتعظ بمنْ سبق، ومن هنا يلْفِتُ الله أنظارَنا أن نعتبر بما حدث لأبينا آدم مع الشيطان، وكيف استطاع اللعين أنْ يلبِّس الأمرَ على الأبوين - رغم تحذير الله لهما وقُرب العهد في ذلك - وكيف كَذَبَ عليهما متعمِّدًا، ودَخَل إليهما من نقْطَة الضَّعْف التي عَرفها فيهما.

وقد آن الأوان أن نتأمل الدرس، ونستخلص منه العبرة.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ، فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ [الأعراف: ٢٠: ٢٢].

فتأمل - رحمك الله - كيف جاء الشيطان في ثوب الناصح الأمين، وهو العدو المبين، وكيف كذب على الله باتهام شرْعه، حيث أمر الله آدم ألا يأكل من الشجرة، فيأتي اللعين ويقول لآدم: لا؛ بل كُلْ من الشجرة، فإنَّ أكْلك منها هو: طريق الخلد، فكذب كذلك على الأبوين، وزيَّن لهما المعصية، ومخالفة أمر الله، وجعلها بابَ الملك والخلْد، في حين أن المعصية

طريق الذلِّ والتردِّي والهوان ، لكن هكذا الشيطان وأعوانه يضلُّون الناس ، ويزينون الباطل لهم ، ويسمونه بغير اسمه : (بِأَنْ سمى تلك الشجرة : شجرة الخلد ، فهذا أول الكيد والمكر ، ومنه ورَّث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح - وهي أم الكبائر - ، وسموا أخاها - الحشيش والأفيون - : بلقيمة الراحة ، وسموا المكوس : بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه : شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب سموه : تنزيهًا ، وسموا مجالس الفِسْق : المجالس الطيبة ، وسموا الربا : بالمعاملة) .

وهذا الذي كان في زمن ابن القيم - رحمه الله - وما زال الشيطان بأتباعه يزين لهم ، ويحدث لهم في كل وقت فتنة ، فسموا الخمور : بالمشروبات الروحية ، وسموا الخلاعة والمجون : بالفنِّ ، وسموا الخروج على شَرْع الله ، وتعطيل حكمه في الأرض بالتقدُّم والحريَّة وهكذا ، والشيطان في كل ما تقدَّم كاذب ، ويعلم أنه كاذب ، ولكنه شَامَ نفسَ الأبوين ، وآنس منهما ركونًا إلى الجنَّة ، والنَّعيم المقيم فيها ، فدخل عليهما من هذا الباب ، وهكذا يدخل الشيطان للنفس البشريَّة من المدخل المناسب ، وقليل من الناس من يفطِنُ لهذه النكتة ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] وهذا مدخل من الشر عظيم دخل منه الشيطان إلى نفوس الكثيرين ، وباب من الفتنة ضلَّ بسببه طوائف شتى من الناس ، ومن تمام الفائدة أن نذكر هنا بعضًا مما أورده الإمام ابن قيم الجوزية بهذا الخصوص في إغاثة اللهفان، فهو جدير بالتأمُّل :

(ومن كيده العجيب : أنه يشام النفس ؛ حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها : قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الانكفاف والمهانة ؟ فإن رأى الغالب على النفس : المهانة والإحجام أخذ في تثبيط صاحبها ، وإضعاف هِمَّته وإرادته عن المأمور به ، وثقَّلَه عليه ، فهوَّنَ عليه ترْكه حتى تركه جمْلَة ، أو يقصِّر فيه ويتهاون به .

وإذا رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلوَّ الهمَّة أخذ يقلِّلُ عنده المأمورَ به ، ويوهمُه أنَّه لا يكفيه ، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة ، فيقصِّر الشيطان بالأول ويتجاوز بالثاني ، كما

قال بعض السلف : ما أمر الله تعالى بأمر إلا والشيطان له فيه نزعتان إمَّا إلى تفريط وتقصير ، وإما مجاوزة وغلو . ولا يبالي الشيطان بأيهما ظفر) .

فالدين الحق وسط بين الأمرين : تفريط وإفراط، فكما أن الشيطان يفرح بالمفرِّط المقصِّر في دينه ، فهو كذلك يفرح بالغالي المتجاوز الحدّ ، وربما كان فرحه به أشد . ثم أخذ ابن القيم - رحمه الله - في بيان أمثلة من الذين استفزهم الشيطان، وأوقعهم في هذه الفتنة ، وجَنَح بهم ، إما إلى تفريط وإما إلى إفراط :

(وقد اقتطع الشيطان أكثر الناس - إلا أقل القليل - في هذين الواديين ، وادي التفريط ووادي الإفراط ، والقليل منهم الثابت على الصراط الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

❋ فقصَّر الشيطان بقوم عن الإتيان بواجبات الطهارة ، وقوم تجاوز بهم الحد بالوساوس .

❋ وقصَّر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم .

❋ وقصَّر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم ، وتجاوز بآخرين حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام .

❋ وقصَّر بقوم حتى منعهم من ذبح عصفور أو شاة ليأكلوها ، وتجاوز بهم حتى جرأهم على الدماء المعصومة . لا حظ هنا : أنه تجاوز بهم أنفسهم ، فالذين يحرِّمون المباح هم الذين يستحلون الدماء المعصومة .

❋ وقصَّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم النافع ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به .

❋ وقصَّر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح ، وأعرضوا عنهم ، ولم يقوموا بحقهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله ، أي : بدعائهم من دون الله أو التوسل بهم إليه والتقرُّب إليهم .

❋ وكذلك قصَّر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما أحلُّوه ، والحرام ما حرَّموه ، وقدَّموا أقوالهم على سنة رسول الله الصحيحة الصريحة وهدي صحبه الكرام .

❋ وقصَّر بقوم حتى

قالوا : إن الله لا يقدر على أفعال العباد ولا شاءها منهم ، ولكنهم يعملونها دون مشيئته وقدرته ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : إنهم لا يفعلون شيئًا البتة ، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقة ، فتعالى الله عما يقول الفريقان علوًّا كبيرًا .

❋ وقصَّر بقوم حتى قالوا : إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ، ولا بائنًا عنهم ، ولا هو فوقهم ، ولا تحتهم ، ولا خلفهم ، ولا أمامهم ، ولا عن أيمانهم ، ولا عن شمائلهم - ضيعوا ربَّهم - وتجاوز بآخرين حتى قالوا : هو في كل مكان بذاته كالهواء الذي هو داخل في كل مكان - وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - فهو سبحانه فوق عرشه ، بائن عن خلقه ، معهم بعلمه وقدرته ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

❋ وقصَّر الشيطان بقوم حتى قالوا : إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل فضلًا عن أبي بكر وعمر ، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام صاحب الكبيرة الواحدة .

❋ وقصَّر بأقوام حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته ، وعطلوه منها ، وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه - فسبحان الله .

❋ وقصَّر الشيطان بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله ﷺ ، وقاتلوهم واستحلوا حرمتهم ، وتجاوز بآخرين حتى ادعَوْا فيهم خصائص النبوَّة : من العصمة وغيرها) .

وهذا باب يطول بيانه كما ذكر ابن القيم ، ونحن بدورنا لم نورد كل ما أورده ، بل اخترنا منه : والقصد بيان طرق تلبيسه على طوائف شتى من الناس ، وإيقاعهم في الباطل باسم الحق ، والدخول إليهم من نزعة التفريط أو الإفراط .

وخلاصة القول أوردها الله تعالى محذرًا ومنبِّهًا ومذكرًا ومعلمًا ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

فها هو ذا الشيطان - يا عباد الله - أعلن عداوته لكم منذ خلق الله أباكم ، وها هو ذا الشيطان يقعد لكم بكل طريق ، ويصدكم عن الصراط المستقيم ، ويدعوكم إلى كل طريق منحرف ، وها هو ذا الشيطان لا يفتأ عن التسلط علينا بأنواع متعدِّدة من الفتن والمكر والخديعة ، وها هو ذا الشيطان يستخف بمن يستطيع من

بني آدم ، ويدعوهم إلى باطله المتمثل في أصوات المزامير والأغاني وصور الملاهي وأنديتها وجمعياتها ، ومتسلط علينا بجميع جنوده : الركبان منهم والمشاة ، حشدهم جميعًا لإضلال بني آدم ، ومشاركتهم في الأموال بجمعها من حرام ، وإنفاقها في حرام ، وفي الأولاد بنزع البركة منهم ، وتزيين الزنا ، وتحسين الفجور ، وها هو ذا مستمر في التغرير بنا صباح مساء ، اقرءوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٤] .

قد اتخذ الشيطان آدم وذريته أعداءً له ، وهَدَفًا لحربه ، وميدانًا لكيده ومكره ، فهل اتخذناه نحن ﴿ عَدُوًّا ﴾ كما أمرنا الله في الآية السابقة وفي غيرها من الآيات ؟ هذا سؤال يحتاج إلى إجابة ، والإجابة يعلمها كلٌّ من نفسه .

ولكنه من المفيد هنا أن نَذْكُرَ أن الله عندما ابتلانا بهذا العدو اللعين لم يترُكْنا سدًى ، بل بيَّن لنا طُرُقَ الدفاع عن أنفسنا ، بل تحصينها من ذلك العدو ، بل الهجوم عليه ودَحْره حتى يتوارى ويتلاشى ، ويغدو ضعيفًا ذليلًا ، نعم كل ذلك في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ، وفي سيرة سلفنا الكرام ، ونحن نشير إلى بعضها باختصار حتى لا يطول بنا الحديث .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥] ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين في توحيده ، وفي الاستعانة به سبحانه ، وها هو ذا الشيطان يقرُّ ويعترف بذلك ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩، ٤٠] ، ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٣] .

ويؤكد الله سبحانه هذه الحقيقة بقوله سبحانه : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤١، ٤٢] .

وانظر - رحمك الله - إلى هذه التربية القرآنية الموجَّهة إلى الرسول ﷺ وإلى أمَّته : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ، إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ : ١٠٠] .

فليس من شك أن أول الأسلحة الموجَّهة إلى الشيطان - والتي لا يستطيع معها مقاومة - سلاح الإخلاص لله : الإخلاص لله في الإيمان ، وفي التوكل ، وفي العلم ، وفي العمل، إخلاص أعمال القلوب وأعمال الجوارح .

❁ وفتن الشيطان المتنوعة تعود إلى أمرين :

١ - فتن الشبهات : وعلاجها العلم النافع من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ بفهم الصحابة الأبرار ، وعلى منهج سلفنا الصالح الذي هو سبيل المؤمنين ، والإخلاص في ذلك والعمل به .

٢ - فتن الشهوات : وعلاجها الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعصية ، والحصن الذي تتحصن به دائمًا : المواظبة على ذكر الله بقراءة القرآن والأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ ، والمحافظة على الجماعة في المسجد : في الجمعة وجميع الصلوات ، وملازمة أهل الصلاح والتقى ، وترْك صحبة الأشرار ، فإنهم شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا .

وفي هذا القدر كفاية لمن أراد الهداية ، والله سبحانه أسأل أن يهدينا وإياكم وجميع المسلمين إلى صراطه المستقيم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كلمة وفاء

أثناء طبع المجلة يوم الخميس ٢٥ ربيع الأول ١٤١٥هـ أحزننا نبأ وفاة شيخنا الجليل وأستاذنا الفاضل سماحة الشيخ عبد الرازق عفيفي عطية ، ثاني الرجال الذين تولوا رئاسة جماعة أنصار السنة المحمدية بعد وفاة مؤسسها الشيخ محمد حامد الفقي ، وقد كان نائبًا لرئيس الجماعة قبل ذلك ، ولم يبق بالجماعة رئيسًا سوى عام واحد فقط انتقل بعدها إلى المملكة العربية السعودية ، حيث اتسع نطاق خدمته للدعوة فشارك في تأسيس المعاهد العلمية ، ثم كلية الشريعة واللغة العربية ، ثم عمل مديرًا بالمعهد العالي للقضاء ، ثم نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ونحن نضرع إلى الله تعالى العلي القدير أن يتغمد الشيخ بواسع رحمته ويسكنه فسيح جناته ، وأن ينفعنا بالعلم الذي تركه ، وأن يلحقنا به على الصالحات .